

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤتمر الثقافي الوطني الأردني الرابع

جذور الثقافة الوطنية الأردنية

الجامعة الأردنية 2008/3/31م – 2008/4/2م

ملاح الهوية الثقافية لأبناء البلاد الأردنية في نهايات الحقبة العثمانية

د. بسمة الدجاني ود. فاطمة العمري

ملخص البحث

يسعى هذا البحث إلى رسم ملامح الهوية الثقافية لأبناء المنطقة الأردنية في نهايات الحكم العثماني وصولاً إلى عهد الإمارة. وذلك من خلال التنقيب عن روافد تلك الثقافة المتمثلة في البعدين: الداخلي والخارجي بحيث يتناول البحث أثر العوامل الدينية والقومية والهوية المحلية في تشكيل الوعي الثقافي لسكان المنطقة بالإضافة إلى تتبع آثار الحركات السياسية والثقافية والاجتماعية في المناطق المجاورة التي ألفت بظلالها على سكان المنطقة وأثرت في تقاليدهم المجتمعية. والبحث إذ يدرس تلك العوامل يتطلع إلى تحديد تلك الأبعاد التي شكلت الهوية الثقافية ورسمت معالم هويتهم الثقافية العامة في أوجهها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية واللغوية والأدبية التي أفرزت الطموح الناضج نحو تشكيل الإمارة الذي مثل نواة الدولة الأردنية الحديثة. ويحاول البحث أن يجد سبيله إلى تحقيق ذلك من خلال النظر في عدد من المصادر والمراجع القديمة والحديثة التي تناولت أطراف الموضوع.

البلاد الأردنية

قال الخالق سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم " هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور " صدق الله العظيم (الملك، آية 15)

ها هي دعوته جل جلاله في مخاطبته لعباده أجمعين إلى السعي في أرضه الواسعة وتحقيق غاية السكّنى بالاستقرار حيث الرزق.

وقد اعتاد البشر منذ بدء الخليقة على التجمع في بقعة ما لتهيئة لونٍ من ألوان الحياة الكريمة، والتي يتوفر لهم جميعاً فيها درجة من درجات الرزق وشكل من أشكال السكنية. لذلك تعددت المناطق وتكرر انتقال السكان بحسب توفر هذه الغاية الأساسية، انسجماً مع الفلسفة التي لخصها الإمام علي بن أبي طالب بقوله: " اعلم أن الرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن أنت لم تأته أذاك "؛ إذ تضرب الجماعات الإنسانية في الأرض حتى يتحقق لها شرط الرزق المتمثل بالماء والكأ فإن تحقق لها استوطنت في المكان واتخذته مقراً لها لا تبارحه إلا إذا ضنّ عليها بموارده.

فبلادنا إذاً هي الأرض التي نستقر فيها ونحقق في أرجائها كسب الرزق، وتوفر المأكل الطيب، والمسكن الآمن. واليوم يتجسد معنى هذه الآية الكريمة في عصرنا ونحن نشهد انتقال ذرية آدم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً في كوكب الأرض على امتداده حيثما يجد الميمم غايته من الرزق والمأوى. فها هو ابن السلالة العربية - مثلاً - يُنشئ سلالته خارج دائرة آبائه وأجداده، ويتخذ من مكان عمله في استراليا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأوروبا وجنوب افريقيا والصين موطناً، ويصير هو وأبناؤه ناطقين بلسان تلك الأقوام، وربما حاملين لجنسيتهم، وممارسين لتقاليدهم، وشيئاً فشيئاً متمثلين لهويتهم وصادرين عن منظومتهم القيمية.

الجنور الأردنية

فالمكان حاضن للأقوام، وثقافتهم، ووعاء لهويتهم العامة، بل إنه يصبح جزءاً منهم كما يصبحون بدورهم جزءاً منه. ولا تخفى أهمية البعد المكاني في تحديدنا للبلاد الأردنية التي تمتد من نهر اليرموك شمالاً إلى خليج العقبة جنوباً ومن الجفر شرقاً إلى نهر الأردن غرباً¹. فقد امتازت هذه البلاد بحظوة أن تكون امتداداً طبيعياً لأرض

¹ مع أن حدود البلاد العربية لم تحدد إلا بعد اتفاق سايكس بيكو الذي رسم حدوداً لاتزال قائمة إلى اليوم. فكما ذكر المؤرخ جمال حمدان أن حدود مصر الحالية لم تعرف إلا في بدايات القرن العشرين.

الرسالات السماوية ومهد الديانات الثلاث، ولساكنها أن يستشعر قدسيتها وهو يتمثل قصص الأنبياء عليهم أفضل السلام وهم ينتقلون على أراضيها ابتداءً بسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وزوجه السيدة هاجر يحملان ابنهما سيدنا إسماعيل عليه السلام من الشام إلى الحجاز، وإلى سيدنا موسى وأخيه هارون عليهما السلام وقد نصبا القبة بين خيامهم في التيه يُصلُّون إليها ويتعرضون للوحي عندها، وإلى سيدنا داود وابنه سيدنا سليمان عليهما السلام اللذان قاما ببناء بيت المقدس¹، حيث دُفن كثيرٌ من الأنبياء من ولد إسحاق عليه السلام، وسيدنا عيسى عليه السلام بين أحضان أمه السيدة مريم تُغَطِّسُهُ صغيراً بالماء السلسبيل، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم محمولاً في سمائها عندما أُسري به إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السموات العلى.

أو ليس حق على ساكن هذه البلاد شمالها وجنوبها أن يعرف ولو القليل عن تفاعلها العميق مع حضارات الإنسانية قديمها وحديثها؟ بلى، فلمن يتخذ هذه البلاد مسكناً الحق في أن يفخر بعراقة المكان الذي يتواجد فيه. وقد تعاقبت عليه أقدم الأمم واستقرت فيه شعوب تركت آثارها الغنية في نواحيه المتعددة بحكم موقعه الجغرافي المتميز. فبدءاً من الكنعانيين والعموريين، مروراً بالإمبراطورية الفرعونية المصرية، فالمملكة الآرامية، فسيطرة الأشوريين فالبابليين ثم الغزو الفارسي والذي تصدَّى له الإسكندر المقدوني ومن بعده قائده بطليموس الأول الذي ضمَّ شرقي الأردن وفلسطين لمملكته في مصر عام 312 قبل الميلاد².

وما أروع أن يعرف ابن كل مدينة أو قرية سبب إنشائها وتاريخها العريق فيعرف كيف ازدهرت التجارة في منطقة البلاد الأردنية بعد انفتاحها على الحضارة الإغريقية اليونانية، ولذلك أنشأ اليونانيون مُدناً تقع على هذه الطرق التجارية وطرق المواصلات التي منها أم قيس وإربد وسوف. وكيف وصلت دولة الأنباط إلى أوج عظمتها كمركز تجاري هام عام 58 قبل الميلاد. ثم حين خضعت المنطقة لحكم الرومان

¹ مقدمة ابن خلدون، ص 354.

² انظر: فاروق نواف سريجين، تاريخ مدينة الرمثا، دراسة تاريخية، إقتصادية، أنثروبولوجية، مطابع القوات المسلحة الأردنية، عمان، 1985م، ص 51-52.

الذين أرادوا مواجهة تزايد إقبال جموع الأعراب من الجزيرة ممن وقفوا أمام روما واجتاحوا شرقي الأردن وسهول حوران والشام في عام 40 قبل الميلاد. فأنشأ الرومان حلفهم المُسمّى بالديكابوليس (المدن العشر) ومنها: بيلا (طبقة فحل)، وهبوس (فيق، قلعة الحصن)، وجدارا (أم قيس)، وجراسا (جرش)، وفيلادلفيا (عمان)، واربيل (إربد)، وكابتولياس (بيت راس). وكيف أن طرق المواصلات التي اهتم الرومان بفتحها بعد سقوط مملكة الأنباط هي تلك التي استخدموها للجيش وللقوافل التجارية، وهي ذاتها التي استعملها حُجاج المسلمين في العصور اللاحقة.¹

هذه الجذور الإنسانية الضاربة في العمق الحضاري للخبرة البشرية التي كانت أراضي البلاد الأردنية موطنها، لا بد وأن يكون لها أثرها في تركيبة هوية ساكنها، ولذلك كان الاحتفال والفرح بالمكانة العالمية التي فازت بها مدينة البترا بين مدن العالم الأثرية؛ فجاءت الدعوات لكل البشر من كل مكان لزيارتها محفوفة بالفخر بها. كذلك يتم الترويج لجرش ولأم قيس بما يمثلانه من تجسيد حضارات عريقة في البلاد الأردنية. تُلقى خصوصية المكان الأسرة ظلالها الرحبة على ساكني تلك المناطق وغيرها لما تتمتع به من ماضٍ عريق يجعل الفخر بالانتماء لأولئك الجدود أمراً طبيعياً؛ فيستشعر أبناء إربد وما حولها - إلى يومنا هذا أثر- النصر الهائل الذي حققه قائد الجيوش الإسلامية خالد بن الوليد عام 15 هجرياً/ 635م، وقيمة الدور الذي قام به جند الأردن الذين كلفهم ثاني الخلفاء الراشدين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذود عن بلاد الشام بعد فتحها، ولا يقلُّ ذلك عن بهجة أهالي الكرك بأن يرثوا مجد معركة مؤتة، ويكون لأرضهم شرف احتضان جثامين الشهداء الثمانية عشر من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك الدور الاقتصادي البارز الذي أدته أسواق البلاد الأردنية بين القوافل العربية بعد أسواق الحجاز.

¹ المصدر نفسه، ص 53.

(ففي حديثنا عن الثقافة السائدة والرائدة في البلاد الأردنية على عتبة القرن العشرين يجدر بنا أن نبدأ بتعريف زمني لما مرت به هذه البلاد من أحداث تاريخية تركت أثراً في الإرث الثقافي للبلاد الأردنية عبر العصور. فمن الأنباط والرومان وآثارهم الخالدة في جنوب الأردن وشماله ننتقل إلى العصر الإسلامي والمعارك الحاسمة التي خاضها المسلمون، فالدولة الأموية ثم الدولة العباسية ومروراً بالدولة الأيوبية ودولة المماليك، وحملات الفرنجة وكيف تأثرت بلادنا الأردنية بها، وانتهاء بعام 1516م/922هـ عندما دخلت البلاد الأردنية بمفهومها الحالي تحت الراية العثمانية.)

(أما أبناء مؤتة فلا زالت تحيا بينهم وبين سكان البلاد الأردنية ذكرى تلك الغزوة الهامة منذ العام الثامن الهجري بقيادة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقدرون مكانتهم بالاهتمام الكبير بمقاماتهم من زيد بن حارثة إلى جعفر بن أبي طالب إلى عبد الله بن رواحة رحمهم الله، وقد كان لهم دوراً فاعلاً في التصدي لحماية البلاد من هجوم الرومان بقيادة هرقل، ومهدوا لانتصار خالد بن الوليد فيها. وأستشهد في ذلك بقول المغفور له الملك الحسين بن طلال: "لمؤتة في النفس مكاتة، وفي القلب منزلة، وفي خاطر رعشة اعتزاز"¹.

ثم حين يسير الراكب إلى الشرق من عمان فيتأمل ما سجلته صفحات التاريخ وهو يزور أطلال تلك القصور الصحراوية مجسدة لوناً من اهتمامات خلفاء العهد الأموي، ويتخيلهم أمامه في طريقهم إلى رحلات الصيد وقد رغبوا في الاسترخاء فاتخذوا من هذه البلاد مكاناً قصياً ليتابعوا من بعده نشاطهم. فيدرك المزيد عن طبيعة وبيئة بلاده الأردنية.

وتذكر صفحات تراث الأدب ما تغنى به الشاعر عماد الدين الكاتب محمد بن عبد الله الأصبهاني (519هـ- 597هـ) (1125م - 1200م) في أبياته وهو يناجي مدينة الزرقاء بعد أن رافق صلاح الدين الأيوبي (532هـ - 589هـ) (1138م - 1193م) في جيشه من

¹ شعار كلية مؤتة.

بلاد الشام إلى القاهرة، فمن خلال سهول الرمثا والكفرات عبرت جيوش صلاح الدين إلى حطين، ومنها:

ولم أنس يا زرقاء يوم وداعنا
أعدتك يا زرقاء حمراء أنني
أنامل تدمى حيرة للندم
بكيته حتى شيب ماؤك بالدم¹

العلاقة وثيقة بين أبناء مدينة الكرك وصلاح الدين الأيوبي، وما أروع وصفها في العديد من كتب تراثنا التاريخي حيث جاء فيها: "وأما المملكة الكركية فليست من الشام، وهي مملكة بمفردها وتسمى مآب، وهي مدينة حصينة ومعقل من معاقل الإسلام، بها قلعة ليس لها نظير في الإسلام ولا في الكفر، استولى عليها الفرنجة إلى أن فتحها المرحوم صلاح الدين الأيوبي بعد فتح القدس عام 583هـ / 1187م لتوحيد الجبهة العربية الجنوبية في مصر مع الشمالية في بيت المقدس².

وكما أن البعد الديني من بين أبرز الأبعاد المشكلة لهوية أبناء البلاد الأردنية حيث برز من خلال التأثير بالجوار وهي بلاد تقع بين دمشق إلى الشمال بإرثها التاريخي العريق، والقدس الشريف بقديسيته أولى القبلتين وثالث الحرمين إلى الغرب، والديار المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة إلى الجنوب والشرق تفصلها عنهما صحراء شهدت من الأحداث التاريخية ما شهدت. كما تزخر هذه البلاد بإرث مسيحي غني قدم الديانة التي بشر بها السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام. إذاً فقد فرض الموقع الجغرافي طبيعة خاصة على البلاد وأهلها وثقافتها. ومن ميزات هذا الموقع الانفتاح على الآخر وتقبل الثقافات الأخرى، فهي بلاد مفتوحة وما هي بجزيرة منعزلة أو هضبة محاطة بالجبال، بل هي قريبة على مر الزمان من مراكز إشعاع حضاري وثقافي إلى الشمال وإلى الغرب. وقد مر الرحالة العظيم ابن بطوطة بالبلاد الأردنية ووصف في كتابه الهائل "تحفة النظار في غرائب عجائب الأسفار" عجلون قانلاً: "

¹ انظر: لويس مخلوف، الأردن تاريخ وحضارة آثار، المطبعة الاقتصادية، عمان، 1983م، ص 166.
² انظر: خليل الظاهري بن شاهين 1410-1467م في كتابه "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" المصدر السابق، ص 220 و217.

ثم سافرت إلى مدينة عجلون وهي مدينة حسنة لها أسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقها نهر ماؤه عذب"¹

كانت البلاد الأردنية في كثير من الأحيان مصب الثقافات والحضارات. فالرومان أحضروا تكنولوجيا الزراعة من جنبات امبراطوريتهم وأضافوها للمعرفة الموجودة محلياً ليصبح سهل حوران سلة قمح الإمبراطورية. وكذلك فعل المسلمون في عهود الأمويين والعباسيين والمماليك فقد أضافوا كذلك خاصة في الناحية المعمارية. ومثلت مرحلة إدارة إبراهيم باشا² وجيوشه التي مرت بالبلاد تطوراً كبيراً حيث جعلت للدولة حضوراً حقيقياً في التنظيم الإداري وملكية الأرض والزراعة، وعملت على التأكيد على مساواة الأفراد أمام القانون دونما تمييز مذهبي أو عرقي. فاهتمت الإدارة المصرية بتعمير البرك على طريق الحج في البلاد الأردنية ومتابعة أحوالها كما قامت بتعمير المزارع والقرى التي تحتاج لإصلاح. ثم أتى العثمانيون بالخط الحديدي الحجازي الذي نقل البلاد من مرحلة إلى أخرى، وأحضر أبناء السند والهند المزروعات المختلفة فمع قدوم البهائيين إلى العدسية دخلت زراعة الموز إلى الأغوار؛ وتذكر صفحات التاريخ أن عباس أفندي (ت عام 1340هـ / 1910م) أحضر سبعة أشتال من شجرة الموز من الهند وعمم زراعتها على المنطقة³. وكان لاتخاذ الباب العالي العثماني قرار توطین المهاجرين الشيشان والشركس في منطقة عمان واستحداثها فعلة الفاعل في تشكيلها كمدينة شيئاً فشيئاً. فكان التنوع دائماً ميزة كبيرة امتازت بها بلادنا الأردنية. وقد استفاد أبناء البلاد الأردنية اقتصادياً- قبل تأسيس الدولة بمفهومها الحديث - من الموارد الطبيعية التي توفرت في أراضيهم مثل مياه الحمامات الحارة؛ فاستخدمها الزوار وأهالي البلاد المجاورة وقبائل البدو الذين تردوا عليها بهدف العلاج من العلل والأمراض وكانوا يشتركون الماء من أبناء تلك المناطق.

¹ رحلة ابن بطوطة (ولادته عام 703هـ/1304م، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997م، ج1، ص256.

² الإدارة أثناء حكم محمد علي باشا (1247هـ / 1831م- 1256هـ / 1840م) تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني، د. هند أبو الشعر، ص153-166.

³ د. هند أبو الشعر، تاريخ شرقي الأردن، ص 22.

كما استفاد بعض أبناء البلاد الأردنية في تلك الحقبة من فرض ضريبة مرور لعابري الجسور التي تربط الضفة الشرقية بالجزيرة ولأجتهاها.
كان للرحالة الغربيين دور كبير في تدوين الكثير عن هوية أبناء البلاد الأردنية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث أمضوا فترات طويلة بينهم وسجلوا خلالها ملاحظاتهم الدقيقة حول فئات السكان والمنتجات الزراعية والظروف الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية والوضع التعليمي. لذلك فقد اعتمد الكثيرون في دراساتهم على ما تركه ميرل وشوماخر وبكنجهام وبيركهارت ولي سترانج وأليكس مالون والقس كلاين وغيرهم.

ملاحق الهوية

ليس الحديث في ملاحق الهوية الثقافية لأبناء البلاد الأردنية في نهايات الحقبة العثمانية رسداً لألف باء الحياة العامة والخاصة، وتتبعاً لسيرورة الإنجازات المادية، وكيفيات الحياة وحسب، بقدر ما هو محاولة لتلمس واقع معنوي منبثق عن مداخلات مادية ترفد الحياة المجتمعية بأكملها، فتجعل منها كلاً واحداً - وإن كان متنوعاً - ذا ملاحق مشتركة - وإن كانت خاصة - .

الهوية كلمة تزداد قيمتها مع كثرة تداولها، فالإنسان اليوم يستشعر كينونته بتعريفه لنفسه وسط هذه المجتمعات المختلطة. ولكن كيف يعرف نفسه مع اختلاف المكان وتباين الزمان؟ تدور حولنا جلسات وتتعدد اللقاءات وتكثر الكتابات حول تعريف هويتنا وإبراز شخصيتنا، وإن كانت هذه الظاهرة تدل على شيء فهو حاجة الفرد والمجموعة إلى تأكيد أهمية الذات وتصويرها بالشكل الذي يرضاه كل من الفرد والمجموعة.

في لساننا العربي الهوية هي حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية، وذلك منسوب إلى "هو". أي وكأنني أتساءل: من هو؟ فأجيب بتعريفه؛ هيئته وصفاته وأفكاره.

وتتحدد الهوية وتتبين مع وجود آخرين، والآخرين هم المقابلون لنا في اللغة والأسلوب والثقافة والدين والمستوى الاقتصادي والطبقة الاجتماعية، وهم في حقيقة الأمر آخرون كثر - فوق ثلاثة - يمثلون أطرافاً متعددة متباينة. ويتحدد مفهوم الهوية بالاعتماد على تحديد مفهوم الذات المنبثقة من وجود آخر واحد؛ فالآخر جزء لا يتجزأ من وجودنا الفعلي، وهو موجود بين ظهرانينا يعيش بيننا ويتنفس الهواء ذاته الذي نتنفسه. وعليه فالآخر ليس المشارك في الكرة الأرضية الذي يعيش بعيداً عنا فقط، بل إنه الذي يعيش بيننا في أماكننا المحدودة، وهو الذي يمارس كينونته البشرية بواسطة أدواتنا، وينظم حياته بفعل قوانيننا المحلية، بالإضافة إلى الآخر المغاير في شروط المكان والزمان والأدوات والإمكانات. ووجود عدد من الآخرين بالإضافة إلى "الأنا" في مكان واحد يعني أنه ليس من الممكن القول بوجود هوية واحدة ذات بعد واحد لأبناء المجتمع الواحد؛ لأنهم - أي أبناء المجتمع الواحد - (هو، وهي، وهم) وهم أيضاً (أنا، وأنت، ونحن) أي كلنا سواء أ كنا متفقين أم مختلفين أم منسجمين أم متنافرين. وهو الأمر الذي نرمي إليه بالانطلاق من تحديد مفهوم الهوية والذات؛ إذ يسبقُ تشكُّل الذاتِ تشكُّل الهوية، وما الهوية إلا نتاج أو خطوة تالية لتحديد الذات. وعليه فالهوية المجتمعية مجموعة مركبة من الذوات أولاً ثم من الهويات الفردية المنطلقة من ذوات واضحة المعالم ثانياً تليها بعد ذلك الهوية المجتمعية.

والاتفاق أو الاختلاف كلاهما يشكل قيمة مستقلة في حدِّ ذاتها من حيث أنها تساهم في تأطير ملامح فارقة للهوية بمختلف مستوياتها الفردية والجمعية؛ إذ الهوية المجتمعية ما هي في الحقيقة إلا مزيج يُسار إلى خلق نوع من الانسجام بين أطرافه. وهذا الانسجام وإن غدا صعب التحقيق في وقتٍ من الأوقات فإنه سرعان ما يبدو ممكناً بالقياس إلى أعمار المجتمعات.

فالحديث عن الهوية يأخذ أبعاداً متنوعة؛ إذ يمكن الحديث عن الهوية وملاحمها من وجهة نظر عددية أي نوعية، وهو حديث مقترن بالنوع - طبعاً - إذ يتحدد التعدد

بشرط التنوع " فالهوية لا تستند دوماً إلى المُقوّم ذاته هنا وهناك " ¹. ويعني ذلك وجود عدد من الهويات الخاصة داخل مجتمع واحد تشكل بائتلافها أو اختلافها سمات عامة تُسم الهوية المجتمعية العامة. والهويات العديدة والمتعددة موجودة في كل المجتمعات - وما المجتمعات الأكثر تمدناً وتطوراً وتحضراً اليوم إلا خليط من عدد كبير من الهويات الخاصة المستقلة والمتباينة - إلا أنها تتفاوت بحسب طبيعة المجتمع. وقد كانت تلك الهويات المتعددة غير متجانسة أبداً، وما المجتمع الأمريكي صاحب الحضارة الأكثر هيمنة إلا مثال واضح على تشكّل الهوية المجتمعية من عدد كبير من الهويات الفردية - التي تتمثل بهويات الأقليات والطوائف - التي لا تحمل في أساسها بذور التجانس والاندغام، إلا أنها بفضل تاريخٍ طويل من التعايش استطاعت بفعل المجاورة أن تخلق لها شبكة من العلاقات لتتشكّل نسيجاً بعضُ أوجهه متينة والأخرى واهنة رسمت في جملتها ملامح عامة أصبحت تُعرف بالهوية الأمريكية أو الأسلوب الأمريكي في الحياة.

نهايات الحقبة العثمانية

وقد هيأت الظروف السياسية المتمثلة أولاً بالبعد العثماني وسيطرته على المشاهد العامة بصفته السلطة الأولى والمرجع الثقافي السياسي المهيمن الذي يفرض ثقافة تتقاطع في كثير من أبعادها مع الثقافة العربية بفعل العامل الإسلامي المشترك الذي أثر - دون شك - في الثقافة العربية على امتداد العصور؛ فهذبها وطورها ومكّن لها حتى لم تعد تُعرف لها ملامح بعيداً عنه، فصارت به ومعه ثقافة جديدة هي الثقافة العربية الإسلامية. أعطت الدولة العثمانية الجانب العسكري الحربي جل اهتمامها لقرون بالإضافة إلى الجانب الإداري والتنظيمي ربما على حساب الجانب العلمي. ولكنها في الوقت نفسه لم تكن استعماراً احلالياً رغب في طمس الهوية العربية الإسلامية للمنطقة بل نظرت إلى كثير من المناطق على أنها جزء من دار الإسلام.

¹ فهمي جدعان، رياح العصر قضايا مركزية وحوارات كاشفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002م، ص 62.

لقد نظرت الدولة العثمانية منذ إنشائها إلى سكان الدولة جميعاً على أنهم عثمانيون فأعطتهم حقوقاً مهمة بموجب الدستور ومن ذلك حق التعليم؛ فالمادة الخامسة عشرة من الدستور العثماني تقول إن " التعليم حر، وكل عثماني مرخص له بالتدريس العمومي والخصوصي بشرط مطابقة القانون"¹ وهو الأمر الذي يعني أن الدولة جعلت خيار التعليم مطروحاً وإن تغيرت السياسات فيما بعد.

ثمَّ جاء ثانياً - من حيث الترتيب الزمني - البعد القومي التحرري العربي، الذي جاء نتيجة لتوفر التعليم، وإمكانيات التطوير الذاتي الذي تنبه إليه الكثيرون ممن حملوا همَّ العربي على أكتافهم. ثمَّ ما أعقبه ثالثاً من الوجود البريطاني؛ الذي كان - بالطبع - وجوداً استعماريّاً عمل على تدمير ثقافة الشعب وفي أحسن الأحوال على قمعها وتأزيم نموها، وقدم ثقافته لتمثل الثقافة المتحضرة الغالبة التي لا بدّ من اتباعها وتمثلها². كل تلك التفاعلات والتراكمات التاريخية على المستويات المتعددة التي تعاقبت على البلاد الأردنية شكلت - مجتمعة - إرهاصات حقيقية تمخضت عنها فيما بعد الدولة الأردنية الحديثة؛ إذ هيأت كل تلك الظروف السياسية إلى تشكيل هوية أردنية ذات بعد قومي جمع كثيراً من العرب تحت مظلة وطن واحد - فيما بعد -؛ إذ أكسبت الثورة العربية الكبرى التي أنتجت الحركات التحررية العربية في منطقة البلاد الأردنية بُعداً قومياً خاصاً ما تزال الدولة الأردنية - حتى اليوم - تتكئ عليه في تعاملها مع كثير من قضايا المنطقة العربية آخذين بعين الاعتبار ارتكازها على البعدين العربي والإسلامي - بالطبع - .

فسكان البلاد الأردنية في نهايات الحقبة العثمانية ينتمون إلى دائرة الحضارة العربية الإسلامية التي يعيش في ظلها الوطن العربي مع أوطان أخرى مجاورة تدين شعوبها بالإسلام، وذلك من خلال تعايش أبناء العقيدة النصرانية والإسلامية فيها. وبانتمائهم لهذه الدائرة يتحقق انتماهم إلى دائرة الإنسانية جمعاء مع مختلف أمم العالم وشعوبها الذين تجمعهم كلمة العالمين.

¹ د. عننان لطفى عثمان، التطوير التربوي والاجتماعي في عهد إمارة شرقي الأردن 1921م- 1946م، دار البناييع للنشر والتوزيع، عمان، 1995م، ص 29.

² انظر: د. محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999م، ط2، ص 86-87.

أبناء البلاد الأردنية

فقد وَفِد إلى البلاد الأردنية - آنذاك - كثير من ثوار العرب من المناطق العربية المجاورة الذين كانت لهم - من قبلُ ومن بعد - إسهامات واضحة في تشكيل وعي عربي عام. أما على صعيد البعد السياسي العالمي، فقد استقطبت البلاد الأردنية كما استقطبت غيرها من البلاد وافدين من ثقافات أخرى تمثلوا - في البلاد الأردنية - بالشراسة والشيشان الذين توطنوا في البلاد وساهموا فيما حملوه من ثقافتهم الأم في تشكيل المشهد الكلي العام للهوية الثقافية لأبناء المنطقة.

وقد هيأت الظروف الاجتماعية المتمثلة في الحياة البسيطة ومجمعي البادية والقرية المناخ لتشكّل هوية اجتماعية تعتمد على التنقل والغارات والسطو المسلح في مجتمع البادية، وتعتمد على الفلاحة والمزروعات المحدودة في مجتمع القرية. ثم إن هذه المجتمعات البسيطة التي سادت المنطقة ساهمت فيما بعد في إفراز هوية مجتمعية جديدة نسبياً تمثلت في انتقال بعض أفراد تلك المجتمعات من صفة اجتماعية إلى أخرى؛ إذ اكتسب عدد من البدو صفة الفلاحة بعد أن عمدت السلطات إلى توطينهم في أماكن محددة بغية الحد من التوترات الاجتماعية من جهة، ورغبة في إكسابهم الاستقرار المادي والمعنوي من جهة أخرى، كما اكتسب عدد من أبناء المجتمعين البدوي والقروي صفة المدنية شيئاً فشيئاً بعد ذلك.

على أن هذا لا يعني - أبداً - أن البلاد الأردنية لم تكن تشتمل على المجتمع المدني أو البعد المدني لأبناء المجتمع، إذ تثبت الوقائع التاريخية وجود حواضر اجتماعية في عدد من الأماكن (-----)

وإذا أردنا أن نحدد بعض مكونات الثقافة نستطيع القول أن بلادنا الأردنية تأثرت سلباً وإيجاباً من كونها تحت الوصاية العثمانية، فالعثمانيون كما هو معروف لم يحاولوا صبغ البلاد الواقعة تحت وصاية الباب العالي بصبغتهم الثقافية ولم يفرضوا لغة

السلطان على أتباع الدولة، لهذا حافظت الولايات العثمانية ومنها الأردن على لسانها العربي الفصيح.

في الوقت ذاته أمنت الدولة العثمانية طريق الحج من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق إلى الجنوب باتجاه الديار الحجازية.

ومن الجدير ذكره أن عامل الاستمرار أمرٌ جدُّ ضروري عند الحديث عن الهويات وتشكلها؛ إذ إن انقطاع مؤثرٍ من المؤثرات يعني انسحابه من مجمل الأمور المشكّلة للهوية. وهذا يعني أن بعض العوامل المؤلّفة للهوية ما هي إلا حالات طارئة يزول تأثيرها بمجرد زوال المؤثر أحياناً، أو بعد زواله بمدة زمنية تتراوح بين الطول والقصر تبعاً لقوة العامل ومدى فاعليته. على أن تأثير أي عامل يختلف باختلاف زمن قياسه، ونعني بذلك أن معدل التأثير متعلق بالآنية؛ إذ إن الآنية هي دائماً أكثر مما هي عليه بالفعل. بمعنى أننا إذ نعتبر التأثير العثماني في هذه المرحلة - نهايات الحقبة - أمراً فاعلاً مؤثراً لا بد من أن ندرك أن فاعلية ذلك العنصر أخذت بالتراجع بمجرد انحسار المدّ العثماني وتراجع سلطة الدولة التي لم تكن في نهاياتها فاعلة أبداً. فنستذكر في ذلك نظرية العلامة ابن خلدون في عمر الدولة الطبيعي وأطوارها واختلاف أحوالها ونطبقها على الدولة العثمانية لنجدها آنذاك قد وصلت إلى مرحلة الكهولة والهرم حيث استولى عليها المرض المزمن ولم تستطع الخلاص منه، وكان الله خير الوارثين.

وهو الأمر الذي يسوّغ الاعتداد بعامل الدولة الجديدة التي تلوح في الأفق بفعل بوادر الثورة والتحرر. وهذا يعني أن الهوية لا تتسم بالثبات أبداً؛ إذ تتجدد الهوية دائماً تبعاً للظروف العالمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية العامة، والحديث عن تجدد الهويات لا يتعارض مطلقاً مع ثبات منظومة القيم المجتمعية التي تمثل روح الهوية. وخير دليل على ذلك أن العاصمة البريطانية لندن ظلّت تُعرف باسم مدينة الضباب وقتاً لا بأس به، حتى إذا ما سُنتت القوانين التي تمنع حرق الفحم فيها وتلاشت سحائب

الضباب - عندها - من سمائها لم يُعد الضباب علماً عليها أبداً، ولم يُعد عاملاً مؤثراً في هويتها التعريفية والبيئية والصحية.

والهوية لا تُصنع ولا تُستحدث، كما انها لا تفتنى وإنما تستمدُّ وتتحوَّل من شكل إلى آخر ضمن المعطيات والعناصر الأساسية المؤلِّفة لها؛ فزائرُ اسبانيا يستطيع - بعد مرور كل هذا الزمن - أن يتبين ملامح الهوية العربية في وجوه السكان المحليين حتى وإن بدوا أوروبيين ينطقون بغير العربية إلا أن وجوههم تحمل ملامح الوجه العربي وهويته الشكلية. والمتجول في ساحات اسطنبول يتبين الهوية الإسلامية مع تطبيق النظام العلماني. فالحديث عن الهوية لا يشبه شيئاً واحداً أبداً؛ إنه يتعلق بالكل والجزء في آنٍ معاً، فهو حديثٌ في المأكل والملبس والمنزل والإنسان بكل أبعاده وكل ما يتعلق به ثم حديث في المجتمع بأسره. بل إنَّ مكونات النظام البيئي من نباتات وحيوانات وطيور جزءٌ من الهوية، ويظهر ذلك في اختيار الدول للحيوان الوطني، والنبات الوطني، والطائر الوطني لتكون علماً عليها وجزءاً أساسياً من شعارها الذي به تقدّم نفسها، ووجهاً مسوّقاً لها سياحياً.

التعليم في نهاية الحقبة في البلاد الأردنية

كحال البلاد الإسلامية جميعها، كان نظام الكتاتيب هو النظام السائد لتعليم الأطفال، وقد امتاز هذا النظام عن غيره.

وفي نهاية العهد العثماني لم تمنح الدولة إقامة مؤسسات تعليمية على الطراز الأوروبي بديلة ولمدارسها التقليدية والتي كانت قد تضررت كثيراً بعد حرمانها من واردات الأوقاف وسلب مواردها المالية. وتذكّر جهود السلطان عبد الحميد الثاني¹ في إقرار التعليم "الحديث" في الممالك العثمانية. فأسست البطريركية اللاتينية أول مدرسة لها في البلاد الأردنية في الكرك عام 1295هـ / 1875م، ثم أقام العثمانيون مدرسة كبيرة عام 1312هـ / 1894م. وبعد أن سجلت السالنامة وجود مدرسة واحدة

¹ السلطان عبد الحميد الثاني (1293هـ / 1876م - 1326هـ / 1908م).

غير إسلامية في قضاء عجلون عام 1312هـ/ 1896م أكدت في العام التالي مباشرة وصول العدد إلى 17 مدرسة.

بدأ التسجيل الرسمي لنسب التعليم في البلاد الأردنية عندما أصدرت الدولة العثمانية نظام المعارف ورصدت صفحات السالنامات للتعليم الرسمي في شرقي الأردن وجود مدارس نكور في السلط عام 1874م وفي إربد/ القصبه عام 1882م وفي قضاء عجلون عام 1884م وفي جرش عام 1893م وفي الحصن عام 1896م وفي معان والطفيلة عام 1897م وفي الشوبك عام 1899م.

عرار

سبب الفناء قطيعة الأرحام	إنني أرى سبب الفناء وإنما
هذا عراقي وذاك شامي	فدعوا مقال القائلين جهالة
أرحامكم برواجح الأحلام	وتداركزا بأبي وأمي أنتم
همي وبعض همومكم آلامي ¹	فبلادكم بلادي وبعض مصابكم

المصادر والمراجع

- الأردن تاريخ وحضارة آثار، أ. لويس مخلوف، المطبعة الاقتصادية، عمان، 1983م.
- أوراق عربية، د. خالد الكركي، مكتبة الرأي المؤسسة الصحفية الأردنية، عمان، 1990م.
- تاريخ الأردن في القرن العشرين 1900م-1959م، منيب الماضي و سليمان الموسى، مكتبة المحتسب، عمان، الطبعة الثانية 1988م.
- تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني 922هـ -1337هـ/1516م- 1918م، د. هند غسان أبو الشعر، منشورات اللجنة العليا لكتابة تاريخ الأردن، عمان، 1422هـ/ 2001م.

¹ عن كتاب فاروق نواف سريجين، تاريخ مدينة الرمثا ولوائها، ص 23.

- تاريخ مدينة الرمثا ولوائها، دراسة تاريخية، إقتصادية، أنثروبولوجية، فاروق نواف سريحين، مديرية المطابع العسكرية، عمان، 1985م.
- التطوير التربوي والاجتماعي في عهد إمارة شرقي الأردن 1921م- 1946م، دار الينابيع للنشر والتوزيع، عمان، 1995م.
- جغرافية الأردن، د. نايف الروسان وإبراهيم الزقطي ود. علي عنانزة، دار الشروق، عمان، 2001م.
- الحياة الموسيقية في الأردن، د. عبدالحميد حمام، وزارة الثقافة، عمان، 2008م.
- دراسات في تاريخ الأردن الاجتماعي، مؤلف جماعي، دار سندباد للنشر، عمان، 2003م.
- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تأليف شمس الدين أبي عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي، تقديم وتحقيق د. عبدالهادي التازي، المجلد الأول، أكاديمية المملكة المغربية، 1417هـ/ 1997م.
- رياح العصر قضايا مركزية وحوارات كاشفة، فهمي جدعان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2002م.
- الشريف الحسين بن علي والخلافة، نضال داود المومني، منشورات لجنة تاريخ الأردن، عمان، 1996م.
- عمان في الصحافة الأردنية، أحمد المصلح، بحث في مجلة البيان، جامعة آل البيت، الأردن، المفرق، المجلد الأول، العدد الأول، 1417هـ/ 1997م.
- اللغة والهوية قومية- إثنية - دينية، تأليف جون جوزيف، ترجمة د. عبد النور خراقي، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس 2007م.
- المسألة الثقافية في الوطن العربي، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999م.

- معجم المنسوبين إلى الديار الأردنية في المصادر التراثية سكناً أو مولداً أو وفاة، د. حنا بن جميل حداد ود. نعمان محمود جبران، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن، إربد، 2007م.
- مقدمة العلامة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، شركة علاء الدين للطباعة والتجليد، بيروت.
- من تاريخنا الحديث، سليمان الموسى، منشورات وزارة الثقافة، عمان، 2007م.
- وحدة التنوع وحضارة عربية إسلامية في عالم مترابط، د. أحمد صدقي الدجاني، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1990م.